بسم الله الرحمن الرحيم

وَكُنْ رَجُلًا إِنْ أَتَوْا بَعْدَهُ *** يَقُولُونَ مَرَّ وَهَذَا الْأَثَرُ ٢٠ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ١٤٤٧هـ

اتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ حَقَّ التَّقْوَىٰ، وَاسْتَمْسِكُوا بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ.

عِبَادَ اللهِ: أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَقَالَ: عَلَىٰ شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: تَمَنَّوْا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَتَمَنَّىٰ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَتَصَدَّقُ، وَقَالَ رَجُلٌ: أَتَمَنَّىٰ لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ زَبَرْجَدًا وَجَوْهَرًا فَأُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَتَصَدَّقُ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: تَمَنَّوْا. فَقَالُوا: مَا نَدْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَتَمَنَّىٰ لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ رِجَالًا مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ، وَحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ. لِلَّهِ دَرُّ عُمَرَ الْمُلْهَمِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لَقَدْ كَانَ خَبِيرًا بِمَا تَقُومُ بِهِ الرِّسَالَاتُ، وَتَحْيَا بِهِ الْأُمَمُ الْهَامِدَةُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ وُجُودَ الرِّجَالِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عَزِيزٌ، حَتَّىٰ أَنَّكَ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِي مِئَةِ رَجُلٍ رَجُلًا وَاحِدًا تُصَاحِبُهُ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً». قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ»: الْمَعْنَىٰ لَا تَجِدُ فِي مِائَةِ إِبِلٍ رَاحِلَةً تَصْلُحُ لِلرُّكُوبِ، لِأَنَّ الَّذِي يَصْلُحُ لِلرُّكُوبِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَطِيئًا سَهْلَ الِانْقِيَادِ، وَكَذَا لَا تَجِدُ فِي مِائَةٍ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصْلُحُ لِلصُّحْبَةِ بِأَنْ يُعَاوِنَ رَفِيقَهُ، وَيُلِينَ جَانِبَهُ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «بَهْجَةِ قُلُوبِ الْأَبْرَارِ»: هَذَا الْحَدِيثُ مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ خَبَرٍ صَادِقٍ وَإِرْشَادٍ نَافِعٍ. أَمَّا الْخَبَرُ فَإِنَّهُ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ النَّقْصَ شَامِلٌ لِأَكْثَرِ النَّاسِ، وَأَنَّ الْكَامِلَ أَوِ الْمُقَارِبَ الْكَمَالَ فِيهِمْ قَلِيلٌ، كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ تَسْتَكْثِرُهَا، فَإِذَا أَرَدْتَ مِنْهَا رَاحِلَةً تَصْلُحُ لِلْحَمْلِ وَالرُّكُوبِ وَالذَّهَابِ وَالْإِيَابِ لَمْ تَكَدْ تَجِدُهَا. وَهَكَذَا النَّاسُ كَثِيرٌ. فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْتَخِبَ مِنْهُمْ مَنْ يَصْلُحُ لِلتَّعْلِيمِ أَوِ الْفَتْوَىٰ أَوِ الْإِمَامَةِ، أَوِ الْوِلَايَاتِ الْكِبَارِ أَوِ الصِّغَارِ، أَوِ الْوَظَائِفِ الْمُهِمَّةِ لَمْ تَكَدْ تَجِدُ مَنْ يَقُومُ بِتِلْكَ الْوَظِيفَةِ قِيَامًا صَالِحًا، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ظَلُومٌ جَهُولٌ، وَالظُّلْمُ وَالْجَهْلُ سَبَبٌ لِلنَّقَائِصِ، وَهِيَ مَانِعَةٌ مِنَ الْكَمَالِ

وَالتَّكْمِيلِ.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلَ الْبَشَرِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ لِمَا لَهُمْ مِنْ صِفَاتٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ، وَمِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ: الشَّجَاعَةُ وَالْإِقْدَامُ، وَعَدَمُ الْخَوْفِ مِنَ الْمَوْتِ الَّذِي تَرَبَّوْا عَلَيْهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَهَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُثْنِي عَلَىٰ وَاحِدٍ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «صَوْتُ أَبِي طَلْحَةَ فِي الْجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ». لَقَدْ كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَامِيًا مِقْدَامًا، وَإِذَا كَانَ فِي الْجَيْشِ جَثَىٰ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَشَرَ كِنَانَتَهُ، وَيَقُولُ: نَفْسِي لِنَفْسِكَ الْفِدَاءُ، وَوَجْهِي لِوَجْهِكَ الْوِقَاءُ، كَمَا نَزَعَ حَلْقَةَ التُّرْسِ مِنْ وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ. وَأَخْرَجَ أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ مِسْكَوَيْهِ فِي كِتَابِهِ: «تَجَارُبِ الْأُمَمِ وَتَعَاقُبِ الْهِمَمِ» أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اسْتَعْصَىٰ عَلَيْهِ فَتْحُ «الْحِيرَةِ»، فَطَلَبَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَدَدًا، فَمَا أَمَدَّهُ إِلَّا بِرَجُلٍ وَاحِدٍ، هُوَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو التَّمِيمِيُّ، فَقِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ: أَتُمِدُّ خَالِدًا بِرَجُلٍ وَاحِدٍ؟ فَقَالَ: لَا يُهْزَمُ جَيْشٌ فِيهِ مِثْلُ الْقَعْقَاعِ.

عِبَادَ اللهِ: الشَّدَائِدُ تَكْشِفُ كَوَامِنَ الْأَخْلَاقِ، وَتُسْفِرُ عَنْ حَقَائِقِ النُّفُوسِ، وَالرِّجَالُ لَا تُعْرَفُ إِلَّا عِنْدَ الْمَوَاقِفِ وَالْفِتَنِ وَالْأَزَمَاتِ. فَالْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ تَمُرُّ بِهِمْ أَزَمَاتٌ وَشَدَائِدُ، وَضَائِقَاتٌ وَعُسْرٌ شَدِيدٌ، تَنْقَطِعُ بِهِمُ السُّبُلُ، فَيَتَحَيَّرُ النَّاسُ وَيَضْطَرِبُونَ، وَيَمِيدُونَ وَيَحِيدُونَ عَنْ شَرْعِ اللهِ، فَتَرَىٰ النَّاسَ مُتَفَرِّقِينَ شَذَرَ مَذَرَ، لَا يَرَىٰ أَحَدُهُمُ الْحَقَّ وَلَا يَتَّبِعُهُ، حَيَّرَتْهُمْ فِتَنُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَاضْطَرَبُوا اضْطِرَابًا شَدِيدًا، وَتَبَعْثَرُوا وَتَفَرَّقُوا، فَيُثَبِّتُ اللهُ تَعَالَىٰ النَّاسَ بِرِجَالِ الْمَوَاقِفِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْأُمَّةُ الْيَوْمَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ رِجَالٍ يَحْمِلُونَ هَمَّ الدِّينِ، وَيَسْعَوْنَ جَادِّينَ لِخِدْمَةِ دِينِهِمْ

وَأَوْطَانِهِمْ، شِعَارُهُمْ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾، رِجَالٌ لَا يُقَاسُونَ بِضَخَامَةِ أَجْسَادِهِمْ، وَبَهَاءِ صُوَرِهِمْ، أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ».

إِنَّ الْأُمَّةَ بِحَاجَةٍ الْيَوْمَ إِلَىٰ رِجَالٍ يَتَرَبَّوْنَ عَلَىٰ عَظَائِمِ الْأُمُورِ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، صُفُوفُهُمْ مُنْتَظِمَةٌ، حَرِيصُونَ عَلَىٰ الْوِحْدَةِ وَالِائْتِلَافِ، وَلَيْسَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ. رِجَالٌ هِمَمُهُمْ عَالِيَةٌ، صُبُرٌ عَلَىٰ الْمِحَنِ، وَبُعُدٌ عَنِ الْفِتَنِ، عُقُولُهُمْ مُتَّزِنَةٌ.

عِبَادَ اللهِ: لَيْسَتِ الرُّجُولَةُ بِالسِّنِّ وَلَا بِالْجِسْمِ، وَلَا بِالْمَالِ وَلَا بِالْجَاهِ، فَالرُّجُولَةُ قُوَّةٌ تَحْمِلُ صَاحِبَهَا عَلَىٰ مَعَالِي الْأُمُورِ، وَتُبْعِدُهُ عَنْ سَفْسَافِهَا، قُوَّةٌ تَجْعَلُهُ كَبِيرًا فِي صِغَرِهِ، غَنِيًّا فِي فَقْرِهِ، قَوِيًّا فِي ضَعْفِهِ. وَلَنْ تَتَرَعْرَعَ الرُّجُولَةُ الْفَارِعَةُ، وَيَتَرَبَّىٰ الرِّجَالُ الصَّالِحُونَ إِلَّا فِي ظِلَالِ الْعَقَائِدِ الرَّاسِخَةِ، وَالْفَضَائِلِ الثَّابِتَةِ، وَالْمَعَايِيرِ الْأَصِيلَةِ.

وَلَمْ تَرَ الدُّنْيَا الرُّجُولَةَ فِي أَجْلَىٰ صُوَرِهَا، وَأَكْمَلِ مَعَانِيهَا كَمَا رَأَتْهَا فِي تِلْكَ النَّمَاذِجِ الْكَرِيمَةِ، الَّتِي صَنَعَهَا الْإِسْلَامُ عَلَىٰ يَدِ رَسُولِهِ ﷺ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِمَّا يُعَانِي مِنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: ظُهُورَ الْمُيُوعَةِ وَآثَارِ التَّرَفِ فِي شَخْصِيَّاتِ أَوْلَادِهِمْ، وَمِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ نَجَاتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ، وَيُنَمِّي الرُّجُولَةَ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ:

الْأَوَّلُ: أَخْذُهُ لِلْمَجَامِعِ الْعَامَّةِ، وَإِجْلَاسُهُ مَعَ الْكِبَارِ. وَهَذَا مِمَّا يُقَوِّي عَقْلَهُ، وَيَحْمِلُهُ عَلَىٰ مُحَاكَاةِ الْكِبَارِ، وَيَرْفَعُهُ عَنِ الِاسْتِغْرَاقِ فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَصْحَبُونَ أَوْلَادَهُمْ إِلَىٰ مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ أَبِيهِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ يُجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ، يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ، فَيُقْعِدُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «تُحِبُّه؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحَبَّكَ اللهُ كَمَا أُحِبُّه!، فَهَلَكَ، فَامْتَنَعَ الرَّجُلُ أَنْ يَحْضُرَ الْحَلْقَةَ؛ لِذِكْرِ ابْنِهِ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا لِي لَا أَرَىٰ فُلَانًا؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، بُنَيُّهُ الَّذِي رَأَيْتَهُ هَلَكَ، فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنْ بُنَيِّهِ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ هَلَكَ، فَعَزَّاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا فُلَانُ، أَيُّمَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ، أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمُرَكَ، أَوْ لَا تَأْتِي غَدًا إِلَىٰ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ، يَفْتَحُهُ لَكَ؟» قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَفْتَحُهَا إِلَيَّ، لَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، قَالَ: «فَذَاكَ لَكَ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، أَلَهُ خَاصَّةً أَوْ لِكُلِّنَا؟ قَالَ: «بَلْ لِكُلِّكُمْ».

الثَّانِي: تَعْلِيمُهُ الْأَدَبَ مَعَ الْكِبَارِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَىٰ الْكَبِيرِ، وَالْمَارُّ عَلَىٰ الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَىٰ الْكَثِيرِ».

الثَّالِثُ: إِعْطَاءُ الصَّغِيرِ قَدْرَهُ وَقِيمَتَهُ فِي الْمَجَالِسِ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ بِقَدَحٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ أَصْغَرُ الْقَوْمِ، وَالْأَشْيَاخُ عَنْ يَسَارِهِ، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الْأَشْيَاخَ؟» قَالَ: مَا كُنْتُ لِأُوثِرَ بِفَضْلِي مِنْكَ أَحَدًا يَا رَسُولَ اللهِ. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ.

الرَّابِعُ: تَجْنِيبُهُ أَسْبَابَ الْمُيُوعَةِ وَالتَّخَنُّثِ. فَيَمْنَعُهُ وَلِيُّهُ مِنْ رَقْصٍ كَرَقْصِ النِّسَاءِ، وَتَمَايُلٍ كَتَمَايُلِهِنَّ، وَمَشْطَةٍ كَمَشْطَتِهِنَّ.

الْخَامِسُ: تَوْلِيَتُهُ مَسْئُولِيَّاتٍ تُنَاسِبُ سِنَّهُ وَقُدُرَاتِهِ، وَكَذَلِكَ اسْتِكْتَامُهُ الْأَسْرَارَ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَىٰ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي إِلَىٰ حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَىٰ أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ لِحَاجَةٍ. قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ. قَالَتْ: لَا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللهِ أَحَدًا.